المحاضرة الخامسة:
مصادر الأدب العربي

في نشأة مفهوم كلمة أدب:

كلمة الأَدَب- بفتح الدال- في أصلها- كما يقول ابن منظور- من الدُّعاءُ، ومنه قيل للصَّنِيع يُدْعَى إليه الناسُ: مَدْعاةٌ ومَأْدُبَةٌ. والآدِبُ الداعِي إلى الطعامِ. قال طَرَفَةُ:

نَحْنُ في المَشْتاةِ نَدْعُو الجَفَلى، * لا تَرَى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

امّا الأَدْب- بتسكين الدال- فهو العجب، وجاء فلان بأمر أدْبْ، مجزوم اللاّم، أي بأمر عجيب. وقد ذهب أحدهم إلى تأويل هذا المعنى فربطه بالكلام الفنّي الجيّد، مؤكّدا إعجاب واعتزاز العربيّ به، فقال: «لعلّنا إذا تذكّرنا هذه الحقيقة التي تقف وراء اعتزاز القبيلة بالشّاعر إذا نبغ فيها، فإنّنا نستطيع القول بأنّ الكلام الفنّي الرّائع كان بالضرورة يمكن وصفه بأنّه كَلَامٌ "أَدْبْ" أي قول عجيب بما فيه من رفعة وتميّز".

ولعلّ معنى الدعوة إلى الطعام هو المعنى الّذي ارتبطت به كلمة الأدب في العصر الجاهلي، ولم تشع هذه الكلمة بهذا اللفظ، وإنّما شاعت كلمة (آدب) فقط كما ورد ذلك على لسان طرفة. ثمّ انتقلت هذه الكلمة- كما يرى شوقي ضيف- من معناها الحسّي إلى معنى آخر ذهني مجازي حيث أصبحت تدلّ على الظَّرْفُ وحُسْنُ التَّناوُلِ، ومنه سمّي الأَدَبُ الذي يَتَأَدَّبُ به الأَديبُ من الناس أَدَباً لأَنه يَأْدِبُ الناسَ إِلى المَحامِد، ويَنْهاهم عن المقَابِح. وهو المعنى الّذي دلّت عليه الكلمة في العصر الإسلامي، حيث ارتبطت كثيرا بمعاني التهذيب والرقي الأخلاقي، ويمكن الاستشهاد، في هذا المقام، بذلك الحديث الّذي يُنسب إلى الرسول ﷺ، والّذي يقول فيه: " أدَّبني ربي فأحسن تأديبي".

أمّا في العصر الأموي فقد أصبحت كلمة أدب أكثر لصوقا بالمعنى الخلقي التهذيبي، وأضيفت إليها دلالة جديد وهي دلالة التعليم، حيث "وجدت طائفة من المتعلّمين تُسمّى المتأدّبين، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية؛ فكانوا يلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام، وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذي كان يطلق حينئذ على الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي وتفسير القرآن الكريم".

وقد اتسعت كلمة أدب في العصر العباسي أكثر فأكثر، حيث تداخل المعنيين التهذيبي والتعليمي في استخدامها، كما هو الحال في في كتابي ابن المقفع (الأدب الصغير) و(الأدب الكبير)، وكما هو الحال أيضا في الباب الثالث من ديوان الحماسة لأبي تمام الّذي سمّاه (باب الأدب).

كما أصبحت تدل الكلمة، في هذه الفترة؛ أي في القرنين الثاني والثالث الهجري، على معرفة أشعار العرب وأخبارهم، ثمّ ازدادت الكلمة اتساعا، حيث أصبحت تدلّ على جميع المعارف

سواء ما تعلّق منها بالتاريخ أو الهندسة أو الطبّ أو الفلسفة أو الأخلاق، بل أنّه اندرج تحته الإعلانات والمنشورات السياسية والأخبار الصحفية. وهو المعنى الّذي نجد في رسائل إخوان الصفا.

وفي القرن الثالث للهجرة تفتقت لها دلالة جديدة، حيث دلّت الكلمة على السنن الّتي ينبغي أن تراعى عند طبقة خاصّة من النّاس، أو ما يُسمّى بـ(أدب المهنة) مثل أدب الكاتب لابن قتيبة، أدب النديم لكشاخم (ت350هـ)، وظهرت كتب عدّة في هذا المقام مثل أدب القاضي وأدب الوزير و أدب الحديث وأدب الطعام وأدب المعاشرة وأدب السفر إلى غير ذلك.

ولا نكاد نصل إلى عصر ابن خلدون حتّى نجد الكلمة أصبحت تطلق على جميع المعارف الدينية والدنيوية، فهي تشمل جميع ألوان المعرفة، ولاسيّما علوم البلاغة واللغة. ومن ثمّ قال ابن خلدون معرّفا هذه الكلمة: "الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كلّ علم بطرف".

ثانيا: المصادر الأدبية وأنوعها:

إن اتساع دلالة مصطلح الأدب في التراث العربي، وتباين مفاهيمه قد كان له أثره البائن على تصنيف مصادر الأدب العربي بين جمهور الباحثين والمتخصّصين، ويمكن أن نخرج من خلال هذا التباين بتصنيف مصادر الأدب العربي إلى صنفين:

أ- المصادر الشعرية:

وقد اتفق كثير من الباحثين على هذا النوع من المصادر، وقد صنفوا مصادر الشعر العربي إلى دواوين الشعراء وشعر القبائل والمنتخبات الشعرية. وقد ركز المختصون كثيرا على المنتخبات الشعرية، وذلك لأن هذه المجاميع- كما يسميها بعضهم- عبارة عن مصنّفات تختلف منهجا وغاية عن دواوين الشعراء والقبائل، حيث ركّز فيها أصحابها على جمع أنفس القصائد الشعرية، وقد اتخذ منهجهم وأسلوبهم التصنيفي اتجاهين:

أ- اتجاه اعتمد في تصنيفه على مقياس الجودة دون التقيّد بأيّ تصنيف موضوعي، وأشهر هذه المنتخبات هي: المعلقات، المفضليات، الأصمعيات، جمهرة أشعار

ب- اتجاه آخر التزم بمنهج الغرض أو الموضوع في التصنيف، وتعدّ الحماسات، ولاسيما حماسة أبي تمام أكثر المنتخبات الشعرية اهتماما بتصنيف قصائدها موضوعاتيا

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه قد وقع خلاف بين أهل الرأي في المعلقات، بين قائل أنها منتخبة شعرية، وبين قائل أنّها ليست كذلك، وحجة الرافضين أن المعلقات لم تنتخب من قبل أحد، فهي قصائد استجادها شعراء في العصر الجاهلي، فعلّقت على أستار الكعبة، لجودتها وجمال صنعتها، أمّا حجّة القائلين بأنّها منتخبة شعرية، فيكمن- حسب رأيهم- في أنّ المعلّقات لم تعلّق أصلا على أستار الكعبة، وإنّما هي مجرد مجموعة شعرية قام بانتخابها حمّاد الرواية.

ب- المصادر الأدبية:

لقد ظهر الأثر الواضح لاتساع مصطلح الأدب في تحديد المصادر الأدبية، إذ وقع خلاف كبير بين الدارسين في تصنيف هذه المصادر، بين من صنفها تصنيفا ثنائيا، وآخر ثلاثيا، وآخرون نوّعوا في التصنيف إلى أكثر من ذلك:

1-**التصنيف الثنائي:** ولعلّه التصنيف الأول الّذي عرفت به المصادر الأدبية، حيث اتفق كثير من الباحثين على القسم الأول الّذي خصوه لأمهات المصادر الأدبية، أمّا القسم الثاني فمنهم من جعله لصنوف مختلفة من المصادر الأدبية ومنهم جعله مصادر التراث العربي، ومنهم من جعله لمصادر تراجم الأدباء والشعراء. وهناك من الباحثين من استعاض عن تسمية أمهات المصادر الأدبية بـ مصادر في أدب الثقافة، وجعل بعضهم الصنف الثاني لما سمّاه بـ "أدب المهنة"، وجعله بعضهم الآخر لـ "لمصادر في السير والتراجم والأعلام".

2-**التصنيف الثلاثي**: هناك من حاول أن يخرج عن التصنيف الثنائي الضيق، لكنّه لم يوسع دائرة التصنيف، حيث أضاف صنفا آخر فقط، كما هو الحال عند محمد خفاجي الّذي جعل أصناف المصادر الأدبية ثلاثا: كتب جامعة في الأدب، وكتب في النقد الأدبي، وكتب في التراجم والسير.

3-**التنويع في التصنيف**: نظرا لأنّ التصنيف الثنائي والثلاثي لا يستطيع، بحال من الأحوال، أن يفي بالتنوع الدلالي لكلمة أدب في التراث العربي فقد وسع بعض الباحثين من دائرة المصادر الأدبية، حيث جعلها محمود أحمد حسن المراغي 05 أصناف هي: كتب الأنساب والتاريخ، كتب الثقافة الأدبية العامة، كتب الآمالي، كتب الطبقات، كتاب التراجم، وقد وسع بعضهم دائرة التصنيف أكثر، فجعلها 08 أصناف كما فعل محمد ماهر حماد، وهذه الأصناف هي: مصادر الآداب العالمية، فهارس وبيبليوغرافيا عامة وخاصة، كتب الثقافة الأدبية العامة، المجموعات الشعرية، النقد الأدبي، تاريخ الأدب العربي، مجموعات الخطب والرسائل والمقالات، تراجم الأدباء والشعراء.